كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في الجلسة الإفتتاحيّة للمؤتمر الدوليّ "إكتشاف الفكر السويسريّ باللّغة الفرنسيّة (٣)" حول الفيلسوف السويسريّ دُني دو روجمون Denis de Rougemont و"المقالة في الفلسفة"، نظّمه مركز دراسات "ميشال هنري" وقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، في قاعة محاضرات فرانسوا باسيل، في ٨ كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠١٧.

أودّ أوّلاً أن أهنّئ قسم الفلسفة على هذه الدعوة الرائعة التي تعهّد بها بإطلاق فكر الفلاسفة السويسريين ومن ثمّ مواصلة إكتشاف هذا الفكر، وهو فكر جدّ محفّز ومهمّ للغاية لأنّه يعتمد في آن واحد على الفرديّ وينفتح في الوقت نفسه على العالميّ. تتوجّه كلمة التقدير الإيجابيّة هذه أيضًا إلى سفارة سويسرا، وبالتالي إلى السفيرين، السيّد فرانسوا باراس François Barras واليوم مونيكا شموتس كيرغوز Monika Schmutz Kirgöz الذَين آمنا بقدرة جامعة القدّيس يوسف هذه وبقسم الفلسفة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة على إظهار بريق ما تحتويه سويسرا من نبل ومن كتابات إنسانيّة ووجوديّة وضعها فلاسفتها.

في هذا السياق تقترح كلّ من السفارة وقسم الفلسفة هذا العام التوقّف مليًّا عند فيلسوف معروف جدًّا وليس ممتثلاً للأعراف والعادات، ينتقد التوتاليتاريّة، وهو دُني دو روجمون Denis de Rougemont، الذي أمضى جزءًا من حياته في عاصمة التنوير كناشر وفي فرانكفورت في ألمانيا، ثمّ في نيويورك قبل أن يعود إلى مسقط رأسه سويسرا. إذا كان معروفًا بفكره الشخصانيّ والفدراليّ، فكلمتي لا تكمن في عرض فكره الذي ينطوي على فنّ التداخل بين المسارات المتناقضة، بل تقتصر كلمتي على جانب يمكن أن يحاكيني ويحاكينا هنا، في لبنان، ألا وهو جانب العلاقة الضروريّة التي يقيمها بين الثقافة والحوار، عبر الشخص الحرّ والمسؤول، وهي علاقة تندرج ضمن منظّمة إجتماعيّة. علاوة على ذلك، نحن نعلم أنّ ميشال أسمر، مؤسّس الندوة اللّبنانيّة، كان قد دعا صديقه دُني دو روجمون إلى إلقاء محاضرة في ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢ حول الحوار بين الثقافات.

خلافًا لما قد نعتقده، دُني دو روجمون، في هذا المؤتمر، يشير إلى الاختلافات بين سويسرا ولبنان، لأنّ بلدنا أصغر سنًّا بكثير من سويسرا التي وجدت طريقتها في الوجود والعمل مع هذه الدويلات ال ٢٥ المتّحدة بشكلٍ وثيق وعن طريق أنظمة مثبّتة بشكلٍ جيّد كنتيجة لحوار يستمرّ ويتواصل بين السويسريين، في حين أنّ لبنان يعيش وضعًا أكثر تعقيدًا من سويسرا وقام على أسس التوطين الدينيّ والعرقيّ لعدّة قرون من الزمن. ومع ذلك، يقول دو روجمون، إنّ الحلول التي يجب أن نجدها – على الأقلّ على الصعيد الثقافيّ – قابلة للمقارنة من أجل مواجهة تحديّات القرن العشرين.

باختصار، سوف يعطي دُني دو روجمون تعريفين يسلّطان الضوء على مفهومَي الثقافة والحوار الذَين يتشابكان ويتحدّيان بعضهما البعض باستمرار. وهو يقول إنّ جوهر الثقافة هو الحوار وهو في حدّ ذاته مكوّن أساسيّ للثقافة التي حدّدها دو روجمون كالتالي : "وعي ما يعنيه الوجود، وحاجة مستمرّة لتعميق ما نشعر به ونفعله وتعزيز القوّة التي يمارسها الإنسان على نفسه وعلى الأشياء "(*Ecrits sur l'Europe* (كتابات عن أوروبا)، المجلّد الأوّل، ص ١٦٥). إلا أنّ الحوار غير ممكن إلا انطلاقًا من عناصر اللغة ومواقف العقل المشتركة التي تشكّل العناصر الأساسيّة لأيّ ثقافة. هذه الثقافة هي نتيجة حوار ثلاثيّ للفكر مع الطبيعة والأشياء، مع حالة الإنسان ومصيره ومع البشر بشكلٍ عامّ. ويتابع دو روجمون قائلاً إنّ أيّ ثقافة، إذا كانت تريد أن تُظهر حيويّتها وتحافظ عليها، يجب أن تبقى في حوار مستمرّ مع نفسها ومع الثقافات الأخرى، أي الانفتاح والفضول، والقدرة على قبول ما ليست عليه وهذا البول يضعها في تحدٍّ ألا وهو أن تعي ذاتها. إنّ الثقافة المغلقة على نفسها تحكم على نفسها بعقوبة الإعدام وتجد نفسها في انحطاط، وثقافة النازيين هو مثال نموذجيّ لذلك الإنحطاط. بعد ذلك، يقول دو روجمون مؤكّدًا أنّ حوار الثقافات كان دائمًا قائمًا، وسوف يكون قائمًا دائمًا كما هو الحال في الثقافات الأوروبيّة، معتمدًا على إتيان جيلسون Etienne Gilson الذي كان يقول إنّ ما صنعوا سمعة "السوربون" الثقافيّة كانوا أشخاصًا جاؤوا من ثقافات أخرى غير الثقافة الفرنسيّة.

إذا كنت أجرؤ على مواصلة محاولة فهم هذه الرؤية لدى دو روجمون، أودّ أن أقول إنّها رؤية متفائلة للحوار بين الثقافات، فبالنسبة إليه، ما هو موجود على صعيد أوروبا من الثقافات التي تتحاور وتبني المجتمعات يمكن تعميمه على المستويين الدوليّ والعالميّ. المحاضرات المطوّلة لهذا المؤتمر حول الثقافات وقدرتها على الإنفتاح والقبول تعطي فكرة عن الفكر الفيدراليّ للمؤلّف وتتعارض مع أحد الكتّاب المحدثين والمعاصرين، وهو صموئيل هانتينغتون Samuel Huttington، الذي ترك لنا ما عُرف بصدام لا بل بحرب الحضارات. بالنسبة إلى دو روجمون، الأهمّ هو الموقف الروحيّ الذي يجب مراعاته في هذا الحوار وهو يتمثّل بالمسكونيّة والشخصانيّة والفيدراليّة التي تعادل الشراكة في وقت تولّد فيه الأيديولوجيّات، من أيّ نوع كانت، مواقف جامدة ضارّة بالثقافة. ويصحّ القول إنّ مصطلح "دين" عند دو روجمون يدخل بالأحرى في السجّل الوجوديّ والروحيّ، وهو يصف البعد العاموديّ بين الله والإنسان بالمعنى الذي يعطيه بارت Barthes وكذلك بالمعنى الوجوديّ، وهو في هذا لا يختزل الثقافة كما قد يكون عليه الحال في الوقت الحاضر.

ومن هنا نرى كيف أنّ هذا المؤلّف، المعروف وغير المعروف، هو قريب ومعاصر بالنسبة إلينا، وبالتأكيد على المستوى الأوروبيّ، وكذلك الأمر على المستوى اللبنانيّ وحتّى العربيّ. واليوم سنتكلّم عن التعدّدية السياسيّة والدينيّة وعن المواطنة التي كان يتكلّم عنها دو روجمون في كتاباته بوصفها موقف وممارسة يجب أن يتّخذهما كلّ شخص حرّ ومسؤول في إطار تنظيم إجتماعيّ.

نحن نعلم أنّ دو روجمون، من ناحية أخرى، كان قد أوكل للشخص البشريّ كفرد، مهمّة تقع في صميم الوجود، ألا وهي إعطاء معنى لمواضيع الحياة الثلاثة الأكثر أهميّة : المحبّة، والسياسة والدين. إذا تماهى الدين مع السياسة، بغضّ النظر عن درجة الاندماج في الثقافة، سيضيع حين يصبح مشروعًا سياسيًّا سلطويًّا يتلاعب بالسياسة ويجعل السياسة تستخدمه كأداة. إذا ترك نفسه ينقاد للمحبّة سوف يعرف كيف يتموضع كدليل للحكمة من أجل تقديم مساعدة أفضل لكلّ شخص، في السياسة وخارجها، ومن أجل مواصلة الحوار مع الآخر وتحويل العلاقات بين الأشخاص والثقافات من أجل مواصلة بناء عالم أفضل.